﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾﴾

[الأنبياء: 63]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

مقابلةُ إنكارِ فعلِ المُصلِحِ بالتَّهكُّمِ بالمنكِرين

لَمّا أحضروا إبراهيمَ ﷺ على مَرْأى من النّاس وهم منكرون عليه مقرِّرون، وسألوه عن فعله الفاحش بآلهتِهم قبل أن يُوقعوا به العقوبة المنتظرة؛ قال ﷺ مُتهكِّمًا بهم ومُلزِمًا لهم بالحُجَّة: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَسْـَٔلُوهُمْ﴾: (سأل) يُقال: سأل يسألُ سُؤالًا ومَسْألةً، ورجلٌ سُؤَلَةٌ: كثيرُ السُّؤال، والسُّؤالُ: اسْتدعاءُ معرفةٍ، أو ما يؤدّي إلى المعرفة، واسْتدعاءُ مالٍ، أو ما يؤدّي إلى المال، والسُّؤال للمعرفة يكون تارةً للاسْتعلام وتارةً للتَّبكيت؛ كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾﴾ [التَّكوير: 8] ولتعرُّف المسؤول، وقوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوهُمْ﴾ لتبكيت الكَفَرَة الّذين يعبدون أصنامًا صمّاءَ لا تضرُّ ولا تنفع[1].

2) ﴿يَنطِقُونَ﴾: (نطق) يُقال: يَنْطِقُ نُطْقًا ومنطِقًا، ويكون هذا لما لا نفهمُه نحن، قال تعالى: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ [النَّمل: 16][2]، والنُّطقُ في التَّعارف: الأصواتُ المُقطَّعة الَّتي يُظهرُها اللِّسانُ وتَعيها الآذان، قال تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [الصّافّات: 92] ولا يَكادُ يُقال إلّا للإنسان، ولا يُقالُ لغيرِه إلّا على سبيلِ التَّبَع[3]، وقوله تعالى: ﴿إِن

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المُفردات: (سأل).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نطق).
(3) الرّاغب، المفردات: (نطق).

﴿كَانُواْ يَنطِقُونَ﴾؛ أي: إنْ كانوا ممَّن يمكنُه النُّطقُ، ويَقدرُ على الكلام ويَفهمُ ما يُقالُ له[1].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تبكيتُ عَبَدَةِ الأصنام والازْدراءُ بعقولِهم

أجابَ إبراهيمُ ﷺ عن سؤال الكافرين الظّالمين: (أأنت فعلتَ هذا التَّكسيرَ بآلهتِنا؟!) - مُبكِّتًا إيّاهم ومُقيمًا للحجَّة عليهم: بل فعله كبيرُ الأصنام؛ فاسألوهم إنْ كانوا يتكلَّمون! وأنَّى لهمُ الكلامُ وهم جمادٌ لا يتكلَّمون[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ ﴿بَلْ﴾ ومعناها:

الإضرابُ لمدلول الاستفهام من تُهمة إبراهيمَ واعتمادُ مُتَّهمٍ آخَر

قوله تعالى: ﴿بَلْ﴾ إبطالٌ لِأنْ يكونَ إبراهيمُ ﷺ هو الفاعلَ لذلك، فنفَى أن يكونَ فعَلَ ذلك؛ لأنَّ ﴿بَلْ﴾ تقتضي نَفْيَ ما دلَّ على كلامِهم من اسْتفهامه؛ أيْ: إذا جاءت بعد اسْتفهامٍ أفادتْ إبطال المُستفهَم عنه[3].

المُرادُ بالخبر في: ﴿فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ﴾:

انتفاءُ تعدُّدِ الآلهة، وإثباتُ الوحدانيَّة

قوله تعالى: ﴿فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ﴾ هذا الخبرُ مُستعملٌ في معنَى التَّشكيك؛ أيْ: لعلَّه فعلَه كبيرُهم إذْ لم يقصدْ إبراهيمُ نسبةَ التَّحطيم إلى الصَّنَم الأكبر على الحقيقة؛ لأنَّه لم يدَّعِ أنَّه شاهدَ ذلك، ولكنَّه جاء بكلامٍ يُفيدُ ظنَّه بذلك، حيث لم يَبْقَ صحيحًا من الأصنام إلّا الكبير، وفي تجويز أن يكونَ كبيرُهم هذا الَّذي حطَّمهم إخطارُ دليلِ انْتفاءِ تعدُّدِ الآلهة؛ لأنَّه أوْهَمَهم أنَّ كبيرَهم غضب من مشاركة تلك الأصنامِ له في المعبوديَّة، وذلك تدرُّجٌ إلى

(1) الشَّوكاني، فتح القدير: 3/ 566.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/ 174.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 100، 102.

دليل الوحدانيَّة، فإبراهيمُ ﷺ في إنكاره أن يكونَ هو الفاعلَ أرادَ إلزامَهُمُ الحُجَّةَ على انْتفاءِ ألوهيَّةِ الصَّنَمِ العظيم، ومن ثَمَّ انْتفاءُ ألوهيَّة الأصنام المُحطَّمة بطريق الأوْلى[1].

دلالةُ الجناس في: ﴿فَعَلَ﴾ و﴿فَعَلْتَ﴾:

كان إبراهيم ﷺ شديدَ اليقظةِ في المناظرةِ

جاء ﴿فَعَلَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ﴾ و﴿فَعَلْتَ﴾ في قوله تعالى: ﴿ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا﴾ وكلاهما مُشتقٌّ لفظًا ومعنًى من الفعل الدّالِّ على الحَدَثِ وفاعله، ومكوَّنٌ من نفس الحروف، وبصيغة الفعلِ الماضي؛ للدَّلالة على القيام بالفعل - وهو هنا تكسير الأصنام - وتحقُّقه بتمامه، وإعادتُه بعينه إبلاغ في التبكيت، والإلزام بالحجة.

فائدةُ اسم الإشارة ﴿هَٰذَا﴾:

التَّهكُّمُ بعبَدَةِ الآلهةِ المزيَّفة، وقباحةُ شِرْك الكافرين

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا﴾ إشارةٌ إلى قوله: ﴿كَبِيرُهُمْ﴾ وهو تقييدٌ له؛ أيْ: هذا الَّذي أشيرُ إليه، والَّذي تركتُه بغير كَسْر، يدلُّ على أنَّه كان فيهم كبيرٌ غيره، وهذا - مع كونه تهكُّمًا بهم وكنايةً عن أنَّهم لا عقلَ لهم لعبادتِهم مَنْ يعلمون أنَّه لا يقدرُ على فعلٍ ما - تنبيهٌ على قباحةِ الشِّرك، وأنَّه لا يرضَى به إلهٌ؛ بل يُهلكُ مَن عبدَ غيرَه، وكلَّ ما عُبدَ من دونه إن كان قادرًا غيرُه على مقامه العظيم، ومنصبه الجسيم[2].

بلاغةُ الأمر: ﴿فَسْـَٔلُوهُمْ﴾:

جعلُ المتَّهِمِ هو المتَّهَم

لَمّا أخبر ﷺ بقوله: ﴿بَل فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾، ولم يكن أحدٌ رآه حتَّى يشهدَ على فعله، وكانوا قد أحلُّوهم بعبادتهم، ووضع الطُّعمَ لهم محلَّ مَنْ يعقل، أدارَ الحُجَّة عليهم مع التَّهكُّم بعقولهم، فأمرهم بسؤالهم، فقال: ﴿فَسْـَٔلُوهُمْ﴾؛ أيْ: عن الفاعل ليُخبرَكم

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 100 - 101.
(2) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 440.

به[1]، وما هم بمُخبرين ولا ناطقين، وهذا حالُ المؤمن في صدعه بالحقِّ وقدرته على إرباك خصومه وجَعْلِ ما اتَّهموه به من الظّلم بقولهم: ﴿إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ هم أحقُّ بلزومه فيهم وإقرارهم به، وإن لم يُعلنوه ﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، وهذا ما أدَّاه هذا الأمرُ.

الدلالة على تهافتهم وبطلان شركهم

وفي قول إبراهيم عليه السلام: ﴿فَسۡـَٔلُوهُمۡ﴾ وما اكتنفَه في السّياق من قبلُ ومن بَعدُ تعبيرٌ جليٌّ عن تهافُتِهم، وبطلانِ ما هم عليه من الشِّرك، وقد جاء الأمر ﴿فَسۡـَٔلُوهُمۡ﴾ اعتراضًا بين الكلامَيْن؛ أيْ: إن قدَروا على النُّطق قَدَروا على الفعل، فأراهم عليه السلام عجزَهم عن النُّطق والفعل، وكأنَّ في ضمنه: أنا فعلتُ ذلك[2].

عَوْدُ الضَّمير في ﴿فَسۡـَٔلُوهُمۡ﴾:

الكل في البطلان سواء

الضَّميرُ في قوله تعالى: ﴿فَسۡـَٔلُوهُمۡ﴾ يعود إلى جميع الأصنام؛ أي: الآلهة المُحطَّمة وما بقي منها قائمًا؛ أيْ: فاسألوا آلهتَكُمُ المزوَّرةَ عن الفاعل ليخبروكم به[3]، وتسليطُ السُّؤال عليهم جميعًا إثباتٌ لبطلانهم جميعًا، وقرينةٌ على إرادة تهكُّمه بهم حين قال لهم: ﴿بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا﴾.

نكتةُ الاعتراض بقوله: ﴿فَسۡـَٔلُوهُمۡ﴾:

آلهةٌ لا تقدِرُ على النّطقِ لن تقدرَ على الفعل

جعل إبراهيمُ عليه السلام النُّطقَ شرطًا للفعل، فقال: ﴿بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ﴾[4]، ولذلك كان قولُه تعالى: ﴿فَسۡـَٔلُوهُمۡ﴾ اعتراضًا بين الكلامَيْن، كما تقول: عليه الدَّراهم فاسْأله إن أقرَّ، والمعنَى: إن قدروا على النُّطق قدَروا على الفعل،

(1) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 441.
(2) الزَّجّاج: معاني القرآن: 3/ 397.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 101.
(4) ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، ص: 268.

فأراهم عَجْزَهم عن النُّطق والفعل[1]، وجيء بالأمر بالسُّؤال اعتراضًا أيضًا؛ لتقرير مضمون الكلام وتوكيده من طريق إفادته عجز الأصنام عن الكلام الذي هو أدنى من الفعل، ليَثْبُتَ عجزُها عن الفعل بطريق الأَوْلى.

فائدة الفعل ﴿كَانُواْ﴾:

جاء فعل الشَّرط ﴿كَانُواْ﴾ في قولِه تعالى: ﴿إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ﴾ للدَّلالة على تحقُّق عدمِ نُطقهم، إذ كيف يمكن أن يكون منهم نُطقٌ حاضرًا، إن لم يكن منهم نُطقٌ فيما مضَى؟! وهم أصنامٌ مصنوعة صمّاءُ بكماءُ لا حولَ لهم ولا قوَّةَ ألبتة، والمعنى: إن كان مِن ديدنهم وطبعهم وشأنهم أن يكون منهم نطق وإبانة.

المبالغة في نفي أن يكون من الأصنام نطقٌ وإبانة

دلالة إيثار ﴿يَنطِقُونَ﴾ مادّةً وصيغةً:

آثر الخطاب القرآني الفعلَ ﴿يَنطِقُونَ﴾ دون (يَسْمعون) أو (يعقلون) مع أنَّ السُّؤالَ موقوفٌ على السَّمع والعقل أيضًا؛ إذْ إنَّ نتيجةَ السُّؤال هي الجواب، وإنَّ عدمَ نُطقِهم أظهرُ، وتبكيتَهم بذلك أدْخل، وقد حصل ذلك حسبما نطق به قولُه تعالى: ﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[2]، وهم لم يحصل منهم أيُّ نُطقٍ، ولن يكون منهم نُطقٌ أبدًا، ولذا جاء النَّظمُ بصيغة المضارع ﴿يَنطِقُونَ﴾ للدَّلالةِ على ذلك، ثم إنَّ النُّطق يلزم منه السَّمع والعقل؛ فهو أبلغ في إقامة الحُجّة على قوم إبراهيم.

تبكيتُ عَبَدَةِ الآلهة المُزيَّفة والسخرية منها

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

السُّؤال والاستفهام والاستفتاء:

السُّؤالُ طلبُ الخبر وطلبُ الأمر والنَّهي، وهو أن يسأل السّائلُ

تشترك كلها في طلب الجواب، والسُّؤالُ أعمُّ فهو بالقول والفعل وعمّا يعلم وعمّا لا يعلم

(1) الزَّجّاج، معاني القرآن: 3/ 397.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 64.

غيرَه، أو يأمرَه بالشَّيء، أو ينهاه عنه[1]، والسُّؤال لا يكون إلّا كلامًا، ويمكن أن يكون بالقول والفعل، وهو يستدعي جوابًا باللِّسان أو باليد[2]، ويجوزُ أن يكونَ السؤال عمّا يعلم السّائلُ وعمّا لا يعلم، وأمّا الاسْتفهام فلا يكون إلّا لما يجهلُه المُستَفْهِم أو يشكُّ فيه، وذلك أنَّ المُستفهِمَ طالبٌ لأنْ يفهم[3]، والاسْتفتاء: طلبُ الجواب عمّا يُشكل من الأحكام، وهو معنَى الفُتْيا والفَتْوَى[4]، فظهر بهذا أنَّ السؤال أقوى وأبلغ في إقامة الحُجّة عليهم.

النُّطق والكلام:

النُّطق إرادة اللِّسان في الفم بالكلام، ولذا لا يُوصفُ الله تعالى بالنُّطق، ويُوصَفُ بالتكلّم، قال الله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ١٦٤﴾ [النّساء: 164][5]، والنُّطقُ: الأصواتُ المُقطَّعةُ الَّتي يُظهرُها اللِّسانُ وتعيَها الآذان؛ قال تعالى: ﴿مَا لَكُمۡ لَا تَنطِقُونَ ٩٢﴾ [الصّافّات: 92][6]، والكلامُ: هو ما يُتكلَّمُ به قليلًا كان أو كثيرًا[7]، وهو حروفٌ مُقطَّعةٌ تُعرَفُ بأصواتٍ يُظهرها اللِّسانُ وتعيَها الآذان، ولذلك كان الكلام وما أشبَهه هو معنَى الفعل (نطَقَ)[8]، وأهلُ اللُّغة لم يفرِّقوا بينهما، قال الجوهريّ: النُّطقُ: الكلام[9].

النُّطق إرادةُ الكلام الّذي هو فعلُ النُّطق

(1) العسكري، الفروق اللُّغويَّة، ص: 45، والرّاغب، المفردات: (سأل).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سأل)، والعسكري، الفروق اللُّغويَّة، ص: 286 - 287.
(3) العسكري، الفروق اللُّغويَّة، ص: 48.
(4) الرّاغب، المفردات: (فتى).
(5) العسكري، الفروق اللُّغويَّة، ص: 541 - 542، والكفوي، الكلّيّات: 4/ 18.
(6) الرّاغب، المفردات: (نطق).
(7) العسكري، الفروق اللُّغويَّة، ص: 541 - 542، والكفوي، الكلّيّات: 4/ 18.
(8) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نطق).
(9) الجوهري، الصِّحاح: (نطق).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث والثلاثون،
سورة طه من الآية 132 إلى سورة الأنبياء الآية 88
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثالث والثلاثون، سورة طه من الآية 132 إلى سورة الأنبياء الآية 88
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 33 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-75-4
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 33 : المجلد الثالث والثلاثون، سورة طه من الآية 132 إلى سورة الأنبياء الآية 88.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-75-4
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1130605 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»